دراسات أدبية

فى الأدب الايطالى الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

— ٢ —

بيرانديللو الحديث

ويكاد لويجى بيراندللو يعد ألمع شخصية فى الأدب الايطالى الحديث ، كما أنه أعظم كاتب مسرحى فى هذا العصر . وهو من الأدباء الذين تأثروا إلى مدى بعيد بنظريات العلامة النفسانى سيجموند فرويد ، وقد استطاع أن يجسم تضاعيف هذه النظريات فى رواياته التى تدور حول رسم وتصوير العواطف الخفية التى تسبح فى العقل الباطن ، وتظهر الآونة بعد الأخرى على سطح العقل الواعى فتصطدم بالتقاليد والنواميس الطبيعية

على أن أشد ما يؤسف له هو أننا لم نفهم بيراندللو إلا من حيث أنه كاتب مسرحى فقط ، أما من وجهة أنه قاص عبقرى فلا يزال مجهولا رغم ما أنتجه من القصص الممتازة التى تدل على قوة الملاحظة وخلق الشخصيات الناضجة التى تطابق الواقع وما امتاز به من تحليل الشخصية ورد العناصر الى أصولها

وبيراندللو — فى عرف بعض النقدة — رمز للعالم الحديث فهو يشعر شعوراً عميقاً بأزمن الحاضر المضطرب بسبب الحوادث والماديات اللاصقة به . ونحن إذا شاهدنا مسرحياته لنقارنها بقصصه شعرنا باضطراب وعدم استقرار . بل لما وجدنا شيئاً نتعلق به لننجو بأنفسنا ، فكأننا فى بحر مضطرب ثائر لا يهدأ ، وكل بطل من أبطاله ليس فى الواقع إلا « هملت جديد » لا يعرف معنى للاستقرار . وكلما تعمق فى الحياة ازداد اضطراباً ، فهو أمام الحياة فى حالة ذعر وخوف

وشخصية بيراندللو نفسها تعد مثالا حياً للمضطربين الذين لا ينشدون الراحة إلا فى حالة ثورة فكرية ، وقد أطلق عليه دانيل روبس فى كتابه Carte d'Europe لقب « البلشفيكى العقلى » ، أى أنه صاحب مذهب شيوعى متطرف بالنسبة للفكر الانسانى ، على أننا لا نقر هذه التسمية الخاطئة ، لأن الشيوعية المتطرفة تفكر فى إعادة البناء بعد الهدم ، على حين أن بيراندللو يهدم ولا يبنى

ويدور فن بيراندللو الروائى حول الشعور بالحياة ، ويؤدى إلى فكرة مبهمة عامة ، فاذا ما تطورت برزت أمامها عقبات لصدها عن اتخاذ طريقها الطبيعى ، وأهم هذه العقبات ما يتعلق بالدين والأخلاق والقوانين ، وما يجرى للانسان فى حياته العادية

أما أدبه فيرتكز على نظريات فلسفية يعبر عنها بلسان أبطاله ، وليس الأدب فى نظره سوى وسيلة للحياة فى الخيال وللفرار من المتاعب المادية . فاذا فكر فى موضوع رواية مسرحية أو قصة استسلم اليها وأحس أنه بعيد عن وسطه الحقيقى ليحلق فى الجو المصطنع الذى يبتكره خياله . وهو فى هذا يقول : « لا سيادة لنا مطلقا على أفكارنا وعواطفنا ورغباتنا ، وأننا لسنا سادة بشخصياتنا ، بل إن هذه الشخصية تخضع غالباً لأحكام الكون ولجميع ضروب التأثيرات النفسية . وأنه ليس لنا كيان شخصى معين بل إن شخصيتنا تتبع أعمال الغير ، فنحن نلعب الدور الذى تفرضه البيئة ويفرضه المجتمع . وأننا سوف ننتهى إلى حيث لا نعرف »

ويخيل إلىّ أن بيراندللو يشبه من ناحيته الفلسفية عمر الخيام الذى كان ينادى بالقضاء والقدر ، وإلى أن أساس الكون ومحور نظامه ليس إلا الاضطرار والجبر . فالقدر فى نظر كل منهما أزلى والقضاء أعمى ، ولسنا سوى آلات فى يد الدهر ، تحركنا كما تحرك الريح الشجر ، فليس لنا من إرادة ولا فى وسعنا أن نستقل بآرائنا إنما نحن « رخاخ » فى رقعة شطرنج

* * *

يعارض النقادة الايطالى النابه فردريك ناردللى فى كتابه المسمى (حياة ومتاعب بيراندللو L'umo Segretto—Vita e croci di Pirandello) الرأى القائل بوجوب فصل حياة الفنان الخاصة عن فنه كما يتسنى الحكم عليه أو فى صالحه ، فيصف لنا فى أمانة وبساطة المصائب التى لاقاها بيراندللو فى كافة أدوار حياته وارتباطها بفنه ، فقد ولد بيراندللو وشب فى جزيرة صقلية ، ولذا فمن السهل أن نجد ظل الحياة الصقلية واضحاً عميقاً فى رواياته ونجد أيضاً رسم التقاليد والعادات والحياة الاجتماعية الصقلية فى عصر النهضة ، والاشارة عن طريق خفى فى إحدى مسرحياته بما وقع لأمه فى بدء شبابها . فقد ظل والده بعد العام الأول من

زواجه بعا عمته الأرملة ، فحملت منه بما أدى الى أن
يتخذ ية بثابة بائنة تساعدها على الزواج فى بلد آخر

ى رواية بيراندللو المسماة اكساء العارين Vêtir ceux que sont nus يرسم لنا بطلته وهى أرملة تسمى أرزيليا حاولت أن تحمل الناس على الاعتقاد بأن محاولتها الانتحار كانت بسبب هجر خطيبها ، ولكن الواقع أنها هى التى خدعته . وقد حاولت الانتحار لأنها ضبطت فى حالة مريبة مع رب الأسرة الذى تعمل مربية لأولاده . وفى خلال ذلك مات الطفل الذى عهد إليها بتربيته تحت تأثير حادث خفى ، وقد أنقذت أرزيليا من الانتحار بأعجوبة . فتألب الصحفيون حولها وأخذوا يمطرونها بوابل من الأسئلة ، لأن الرأى العام مهتم بمسألتها ، ولكن بعد فوات زمن طويل جعل الناس يستوضحونها الأسباب التى حملتها على الانتحار ، فلم يسعها أمام إلحاحهم سوى الاعتراف بالحقيقة والبوح بالسر ، وعندئذ سقط القناع ، وأمام حرج موقفها وتبكيت الضمير عاودت الانتحار وفى هذه المرة نجحت

فتأثير الحادث الذى سمعه بيراندللو وهو فى حداثته من أبيه كان لا يزال لاصقاً بذهنه ، فلم يجد بدا من أن يصوغه فى قالب روائى وأن يخلع عليه طريقته فى تأليف مسرحياته واضعاً أشخاصه فى حالة ابهام وغموض وتجلد أمام الآلام ، مسدلا القناع على وجوههم ، ولكن هذا القناع لا يلبث أن يمزقه بعد حين ليعيد إليهم شخصياتهم الحقيقية /

أما فى روايته « المرحوم ماتياس باسكال » ففيها لأول مرة يعالج الخيال والواقع والحياة والموت والجنون والحكمة ، وهى تدور حول تحليل شخصية رجل فقير يدعى ماتياس باسكال هرب من زوجه وحماته لشراسة طبعهما ، قاصداً الهجرة إلى أمريكا ، غير أنه وقف فى طريقه بمونت كارلو ليجرب حظه على مائدة الروليت فأسعفه الحظ وربح أرباحا طائلة ، وحدث فى اليوم التالى لاختفائه أن وجدت جثة غريق مجهول فى النهر فزعم أهل قريته أنها جثة ماتياس ودفن على هذا الزعم وتسربت الحادثة الى ماتياس عن طريق الصحف وهو فى مونت كارلو فقرر أن يعيش مختفيا وأن يتجرد من شخصيته الحقيقية ليعيش متحررا من الروابط الاجتماعية ، لكنه بعد أن يتمرى من شخصيته يفقد توازنه بدليل أنه يقول : « إن الشىء الوحيد الذى أؤكده هو أننى كنت أدعى ماتياس باسكال » . بل ربما نسى أنه كان يدعى بهذا الاسم !

وكثيراً ما يصيب النقدة على بير اندللو أنه يغرق فى الخيال وفى عمق التفكير ، ولكن فى مؤلفات هذا الكاتب المتدفق الثائر نجد أن فنه سبق الحياة فى الكشف عن حقائق ملموسة . وعلى الرغم من أنه ابتكر شخصية ماتياس باسكال فقد طابق خياله منطق الحقيقة مطابقة تامة إلى حد أن حادث ماتياس باسكال وقع بالفعل فى إيطاليا بعد تأليفه هذه الرواية بعشرين عاماً !

وهناك روايته الأخرى الموسومة بعنوان « ايف ولين » وخلاصتها أن شاباً من رجال الأعمال تزوج من فتاة اسمها ايفلين وعاشا عيشة اللهو والحب ، ووقع الزوج فى عجز ومضيق مالى فلجأ إلى التزوير فى حسابات عملائه ، وقبل أن يفتضح أمره فر من وجه العدالة تاركا امرأته الشابة وطفلا له منها ، وعطف عليهما محامى الزوج وآواهما فى بيته وأصبحت المرأة فى حكم زوجته وأنجبت منه طفلة وقد مر على حياتهما الهادئة المطمئنة أحد عشر عاماً ، عاد بعدها الزوج الهارب كأشد ما يكون حباً وهياماً بامرأته . وهنا يظهر لنا ازدواج الشخصية كأوضح ما يكون جلاء ، فقد حارت المرأة بين زوجها القديم وزوجها الجديد ، وإنها لتذكر حياتها القديمة بما فيها من ألوان زاهية مرحة كلها الهوى والشباب وتقابل بينها وبين الحياة التى تحياها ، يطابعها الوقار والرصانة والركود والانصراف إلى الواجبات . وأنها من زوجها الأول طفلا هو اليوم شاب قوى جميل ، ومن زوجها الثانى طفلة تحبها حباً يعادل حبها لولدها الشاب . وكلاهما يمثل ناحية خاصة من حياته بألوانها وصورها المتباينة . وإنها لتحن إلى حياتها الأولى المفعمة بالنشاط والهوى والشباب ولكنها تؤثر حياتها الراهنة بما يحوطها من وقار واذعان وانصراف عن اللهو إلى الجد الصارم . وهى فى حياتها الأولى يدعوها زوجها متحبباً إليها « ايف » وزوجها الثانى متحببا أيضا « لين » . وكل شطرة من هذا الاسم تثير فى نفسها صورا ومعانى وألوانا مختلفة لا سبيل إلى التوفيق والملاءمة بينها وتنتهى الرواية بأن ترضى بحياتها الراهنة وأن يذهب ابنها الشاب ليعيش مع أبيه ولكنها مع ذلك ما تزال تحب زوجها الأول وتحن إلى حياتها القديمة وتشتهيها ، وإنما هى قنعت بحياتها الراهنة لظروف لا تستطيع أن تتحداها